الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ : ٢٢ فبراير ٢٠٠٥

الحريري والأسطورة و«انتفاضة الاستقلال»

(I)

منظّر المعارضة اللبنانية سمير فرنجية على حق: ما يجري الآن هو «انتفاضة استقلال» لن تتوقف قبل أن تنتصر أو تنهزم.

وزعيم الموالاة اللبنانية الرئيس رشيد كرامي على حق: انتفاضة المعارضة هي «مشروع انقلاب» ضد الحكومة وربما النظام السياسي الراهن نفسه.

كلا الطرفين على حق لأنه لا المعارضة تخفي نياتها الانقلابية، ولا الموالاة تنفي رغبتها في اجهاض الانتفاضة.

وعلى أي حال، المسافة بين الانتفاضة والانقلاب لم تكن كبيرة، حتى قبل اغتيال رفيق الحريري.

فالكل كان يعلم أن المعارضة السنّية والمسيحية والدرزية كانت تخطط لإعادة تشكيل السلطة اللبنانية، فور اكتساحها المتوقع أقلام الاقتراع في الربيع المقبل. والكل كان يدرك أن هذا سيكون انقلاباً حقيقياً قد يجرف في طريقه أسس الهيمنة السورية المباشرة على لبنان، بدعم دولي قوي هذه المرة.

ما حدث هو أن اغتيال الرئيس الحريري، حولَ هجوم المعارضة السياسي الى انتفاضة شعبية (أو على الأقل مشروع انتفاضة شعبية)، ونقل الطائفة السنّية برمتها من الموقع الوسطي بين المعارضة والموالاة الى مقدمة صفوف «الانقلابيين».

وهذا ما جعل فصل «الربيع الانتخابي»، يطل مبكراً في عز الشتاء اللبناني العاصف.

(II)

هل تعني هذه التطورات المتسارعة أن المعارضة اللبنانية باتت قادرة على تدشين ثورات قرنفل وورود، كتلك التي شهدتها أوكرانيا وباقي دول أوروبا الشرقية؟

حسناً، فلنقل أولاً إن اغتيال الرئيس الحريري وما تلاه من تظاهر مئات الآلاف ضد السلطة وسوريا، منح المعارضة بشطحة قلم معالم أوكرانية وأوروبية شرقية واضحة: علماً أحمر وأبيض سيحمله قريباً على الأرجح مئات آلاف اللبنانيين؛ هدفاً واحداً هو «الاستقلال» عن سوريا؛ والأهم رمز (الحريري) الذي يمكن تحويله ببساطة الى أسطورة ميثولوجية بوصفه بطل الاستقلال والديمقراطية.

هذه النقطة الاخيرة، أي الرمز والأسطورة، قد تكون الاهم.

فكل الشعوب بلا استثناء في التاريخ، اخترعت في خضم معاركها المصيرية أسطورة كرمز يتضمن كل أحلامها واهدافها.

هذا ما فعله الأمريكيون مع أسطورة «القوميين الأمريكيين» المقاومين للامبراطورية البريطانية، والفرنسيون مع ملحمة جان دارك، والأتراك مع قصة الذئبة الرمادية المرضعة لمؤسس الأمة التركية، والبولنديون مع العامل ليش فاليسا.

المعارضة اللبنانية تعمل بدأب الآن على تحويل الحريري الى مثل هذه الأسطورة. ويبدو أنها تسجل نجاحات واضحة، فضريحه في وسط بيروت يكاد يتحول الى مزار، يتحلق حوله للمرة الاولى في تاريخ لبنان القديم والحديث المصلّون المسلمون والمسيحيون، ويستخدمه المعارضون كنقطة انطلاق لانتفاضتهم السلمية.

والخطاب السياسي المعارض، بدأ يضفي بالفعل على الرئيس الراحل الآن كل مقومات الأسطورة: فهو بطل الاستقلال، وزعيم المسلمين والمسيحيين، ورمز الديمقراطية، وصنو الحرية. والأهم أنه استشهد لأنه كان شجاعاً بما فيه الكفاية ليقول لا لسوريا باسم كرامة لبنان واستقلاله.

بالطبع، الموالون لن يسكتوا (وهم لا يسكتون الآن) على هذا الجهد الحثيث لبناء الاسطورة، فهم يشددون على أن الحريري تعاون مع «المحتلين» السوريين منذ بدء عمله السياسي في بداية الثمانينات وحتى الشهور الأخيرة قبل اغتياله. وهم يلمحون الى نشأته السياسية السعودية ليشككوا في أوراق اعتماده الديمقراطية. كما أنهم، كما فعل أمس وزير الداخلية سليمان فرنجية، بدأوا يتحدثون عن الأموال التي كان يدفعها الرئيس الراحل لكسب ولاء السياسيين والصحافيين.

بيد أن الأرجح أن كل هذه الحملات المضادة

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

لن تحقق اهدافها، فالشعوب، كما أسلفنا، هي التي تخلق أساطيرها بنفسها ولنفسها. وحين تفعل، تكون اليد العليا للخيال والعواطف لا للعقل والمنطق.

وكل خيالات اللبنانيين وعواطفهم تنطلق الان من ضريح الحريري.

(III)

رب قائل هنا: كل هذه الاحاديث عن ربيع أوكراني أو أوروبي شرقي، لا تنطبق على لبنان، فالبلد متكسر اجتماعياً، ومتنازع طائفياً، ومستتبع خارجياً. واذا ما كانت المعارضة تبدو الان موحّدة ضد طرف خارجي هو سوريا، الا انها سرعان ما ستتفكك الى عناصرها الذاتية المتضاربة حين تصل الامور الى الحصص السياسية والغنائم الاقتصادية، أو اذا ما اصطدمت بألغام طائفية ومذهبية.

وهذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً ان تطورات الأيام الاخيرة كشفت النقاب عن أمرين اثنين مهمين:

الأول، أن تظاهرة التشييع وما تلاها، أضعفت كل الأحاديث عن امكانية عودة لبنان الى أجواء العام 1975 التي شهدت اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية المدمّرة، وأحلت مكانها التأكيدات بأن الشعب اللبناني متمسك بالسلام والاستقرار اللذين نعم بهما منذ العام 1989.

والثانية، أن مناخات العداء الشعبي لسوريا، والاعتداءات البشعة على العمال السوريين الأبرياء في صيدا (في الجنوب) والمنية (في الشمال)، أكدت أنه لم يعد بالامكان مواصلة نمط السيطرة السورية السابق على لبنان.

كلا هذين الأمرين، مضافاً اليهما الضغط الدولي القوي، تضعف الآن نقاط ضعف المعارضة، وتجعل قوة سوريا والموالاة في مهب الريح.

سعد محيو

smehio@terra.net.lb

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية